منهج الحضارة الانسانية في القرآن

الإمام الشهيد البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن حديث الحضارة الإسلامية يعد في مقدمة البحوث التي حفلت بها المؤلفات والمقالات المعاصرة، بقطع النظر عن مؤلفيها وكاتبيها مسلمين كانوا أم غير مسلمين.

ولكن الذي يلفت النظر أن جل هذه البحوث بل أكاد أقول كلها إنما يتناول من حديث الحضارة الإسلامية منجزاتها وآثارها، فهي بحوث وصفية لا يرى القارئ من خلالها إلا مشاهد وصوراً للحضارة الإسلامية التي انبسطت خلال ربع قرن على ثلاثة أرباع المعمورة آنذاك، ثم امتدت على أعقاب ذلك بالتأثير والانتشار، حتى شملت معظم العالم، تتمثل في علوم وفلسفة وطب وعمران وفنون مختلفة.. تعرض هذه الصور طبعاً ضمن هالة من الثناء والاشادة والإعجاب.

وفي يقيني أن هذه الطريقة في الحديث عن الحضارة الإسلامية، من شأنها أن تحدث مشكلة عويصة ومركبة في أذهان القراء، تشغلهم عن الصحو إلى مشاعر الاعجاب بروعة تلك المشاهد. إذا ما من إنسان يطمح إلى المعرفة إلا ويتصرف بكليته إلى التساؤل عن العوامل التي إليها مرد نشأة تلك الحضارة الإنسانية العظيمة في تلك المدة القصيرة، ثم إلى التساؤل عن أسباب اختفاء تلك العوامل من حياة هذه الأمة حتى آل الأمر بها إلى نقيض ذلك الماضي الحضاري المشرق !..

وإني لأذكر كيف أن أسئلة من جهات شتى وجهت إلى الكاتبة الألمانية " سيغريد هونكة " تعليقاً على كتابها "شمس الله تسطع على الغرب " كلها يتضمن استفساراً ملحاً عن عوامل سطوع تلك الشمس الحضارية العظمى دون توقع، ثم عن عوامل غروبها دون توقع أيضاً ؟ !.. ولقد رأينا كيف تخبطت في الإجابة على هذه الأسئلة في محاضرة سطحية وجيزة لها، إذ لم تكن قد شغلت بالها بأكثر من استعراض

ورصف لتلك المنجزات، ماثلة كما هي، في حديث تاريخي روائي لا أكثر. وإنا لنشكر لها ولا ريب على إخلاصها فيما عرضت ورصفت.

ولكن لابد أن أبادر فأستثني من عموم هؤلاء الكاتبين، مالك بن نبي عليه رحمة الله فقد سلك في بحوثه ومؤلفاته عن الحضارة الإسلامية مسلك النابش عن جذورها، الرابط بينها وبين نفوس أصحابها. غير أنه اتخذ إلى ذلك شوطاً طويلاً، اجتاز خلال مراحل نظرية لا تلامس كبد الحقيقة ولا تشفي غلة الباحث عن المفتاح.. المفتاح الذي إن عثر عليه المسلمون فاستعملوه اليوم، دخلوا من حيث دخل أسلافهم ونشروا ماضيهم الحضاري من جديد.

وفي يقيني أن مشكلة الحضارة، متى وأينما كانت، هي مشكلة المعرفة أولاً والرغبة ثانياً. فبمقدار ما تكون المعرفة صحيحة والمنهج إليها سليماً، وبمقدار ما تكون الرغبة النفسية ملائمة ومتفقة مع مقتضيات تلك المعرفة الصحيحة، تنشأ الحضارة في ذلك المناخ نشأة سليمة، دون أن تعلق بها شوائب مشكلات أو يحرفها أي عامل عن خط الاستقامة والصلاح.

والذي أجزم به، أن القرآن هو المصدر الوحيد الذي يخطط إلى المعرفة سبيلها، ويرسم أمام الإنسان منهاجها. بل هو المصدر الوحيد الذي يضمن انبثاق الرغبة الملائمة مع المعرفة الصحيحة.

فما هو هذا المنهج ؟.. وهل في مقدورنا أن نوجزه في مثل هذه المحاضرة، وأن نجعله من الوضوح بحيث يشعر أحدنا من خلاله بأن قد عثر على المفتاح، وعرف كيف يديره، فإذا هو قد تخلص من سجن هذا التخلف الذي ران عليه منذ قرون ؟.. أرجو أن أتمكن من عرض خلاصة غير مشوهة له في موقفي هذا، تورثنا جميعاً اليقين بهذا الذي أجزم به.

ولكن علينا أن نعلم سلفاً، أن السير في طريق إنشاء الحضارة، لا يجدي إلا إذا كان عملاً جماعياً تتلاقى عليه أغلبية الأمة، إن لم نقل كلها. فليس له أي قيمة إن جاء عملاً فردياً متناثراً. إذاً فكل ما سنتحدث عنه من السبل القرآنية إلى النهضة الإنسانية الصحيحة، يجب أن يفهم على أن علاجات جماعية توصف لذلك الشخص الذي يسمى بالأمة.

بوسعي ـ أيها السادة ـ أن أقول بادئ ذي بدء: إن السبيل القرآني إلى الحضارة الإنسانية لا يخرج عن كونه تبصيراً بالمنهج الأمثل إلى المعرفة: من أين يبدأ الإنسان سعيه إلى معرفة المكونات وكيف يتعرف على العناصر الأساسية للبنيان الحضاري، بحيث يتاح له أن يستخدمها على الوجه السليم.

فإذا اكتشف الإنسان شرط المعرفة وسبيلها ثم انتهى من ذلك إلى معرفة صحيحة لكل من الكون والإنسان والحياة ـ وهي أركان الحضارة وعناصرها ـ فقد خرج من أسر التخلف، وامتطى سلم الحضارة. فما أيسر أن يقفز بعد ذلك إلى درجاته ويبلغ ذروته. فما هو شرط المعرفة من حيث هي؟

إنها تتلخص في أن يكتسبها الإنسان بتدرج خاضع للقاعدة القرآنية التي تقضي بضرورة الانتقال من الكليات إلى الجزئيات، ومن العموميات الشاملة إلى الخصوصيات الداخلة في قوامها. وأن لا يتورط في السير إلى المعرفة بتدرج معاكس لهذه القاعدة.

وبيان هذا الإجمال، أن نعلم أن متعلق المعرفة مهما كثر وتنوع، لا يخرج عن كونه مندرجاً في دائرة هذه المكونات. ومن المعلوم أن الوجود الكوني وحدة مترابطة المرافق والأجزاء. ومن ثم فلا تستقيم معرفة أي جزء منه إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها.

إن كل ما قد نراه من العلوم والمعارف المستقلة في الظاهر عن بعضها، ليست في الحقيقة إلا أجزاء مترابطة من بناء الهيكل الكوني كله. وإن بينها من التمازج والتداخل مالا يسمح لك أن تحيط علماً بأي منها إلا على ضوء ما قد يبصرك به المجموع الكلي لذلك الهيكل الكوني الشامل.

أرأيتم إلى الفصول المتتابعة من كتاب يعالج موضوعاً علمياً معيناً؟ إن مما هو واضح لنا جميعاً أن استقلال فصوله ليس إلا من حيث الشكل التنسيقي فقط. أما من حيث المضمون فهي مترابطة ترابطاً تاماً، إلى درجة أن استيعاب أي فصل منه متوقف على استيعاب الفصول الأخرى التي من قبله ومن بعده.

أي فمن عكف من قراءة مثل هذا الكتاب على دراسة فصل واحد منه، فإنه لن يعود من دراسته تلك إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف مبتورة. وهي في الحقيقة لون من أسرار ألوان الجهل المركب، وإن تبدي في الظاهر أنها معلومات جزئية مفيدة.

ألا إن الأمر في دراسة فصول هذا الكتاب الكوني خاضع لهذا المبدأ ذاته. لذا فإن على كل من اتجه إلى دراسة أي فرع من العلوم والفنون المختلفة، أن يتخذ إلى ذلك مفتاحاً أساسياً لا بديل عنه ولا بد منه، وهو التبصر بالحقيقة الكونية المتمثلة في الهيئة التركيبية المؤلفة من الإنسان والكون والحياة والتأمل في مظهر العلاقة السارية فيما بينها. الشأن في ذلك كشأن من بسط أمامه خارطة ليطلع منها على موقع بلد أو مجرى نهر أو سلسلة جبال. فمن البداهة بمكان أن عليه قبل كل شيء أن يتصور الرسم الكلي للخارطة وموقعها من الاتجاهات الفلكية المحيطة بها، وما يتقاسمها من خطوط الطول والعرض...فإن هو لم يبدأ بذلك، لم تتحقق أي قيمة لتصوراته الجزئية عن خطوط تلك الخارطة وما انتشر فوقها من أسماء المدن والأنهار والجبال، وإن هو توهمها معرفة وعلماً. بل لا بد أن يعود منها بأفكارٍ مشوشة وتصورات مضطربة: ويتمثل هذا الذي نقول، فيما هو ثابت من أن جل العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم الدنيا ممن لم يلتزموا بهذا الشرط أثناء سعيهم إلى المعرفة، عادوا بعد رحلتهم الطويلة في سبيلها وهم يشكون الجهل، وينشدون المعرفة، ويتبرمون بالحيرة، ويعانون من الاضطراب. لقد رأينا الفيلسوف البريطاني برتراند رسل، يشكو فيما يقصه علينا من سيرته الذاتية أنه على الرغم من كونه وصل إلى كثير مما كان يحلم به، لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى، وهي المعرفة إلا بأوكس الحظوظ !..

كما رأينا من قبله انيشتاين ـ وهو الذي أبدع نظرية النسبة وحدد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية ـ يشكو المعضلة ذاتها، ويعلن لصديقه الكاتب الأمريكي جورج فيرك، أن كل ما قد جمعه من معلومات عن الكون، لم يستطع أن يقدم له عنه إلا لغزاً مقفلاً يستعصي على الحل !..

ورأينا من مثلهما من انجلز ـ وهو شريك ماركس في بناء الفلسفة المادية الجدلية ـ يقول في كتابه أنتى دوهرنغ : إن الأجيال المقبلة ستصحح أخطاءنا الكثيرة أكثر مما يتاح لها أن تلتقط الصحيح من أفكارنا.

ولقد سمعنا الشكوى ذاتها من علماء وفلاسفة آخرين خلوا من قبل بل إني لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة، من مثالية، ومادية ووجودية، وذرائعية، ونحوها، ليس إلا ثمرة غياب هذا الشرط عن منهج الدراية فيها، أي ليس إلا ثمرة اضطراب جاء على أعقاب معرفة مقطعة مبتورة عن تصور الهيكل الكلي لهذا الوجود. هذا مع افتراض أنها جاءت معرفة صحيحة في حدود جزئياتها. لقد انصرف كل من

هؤلاء العلماء إلى العكوف على دراسة زاوية من زوايا هذا البيان الكوني المترابط، وكان كلاً منها مستقل بذاته، دون أن يدركوا قانوناً من أبسط قوانين المعرفة، وهو أن دراسة 20% من كتلة ذات أجزاء متراكمة ليس من شأنها أن تؤدي حتماً إلى معرفة 20 % من حقائق تلك الكتلة.

بل المرجح أنها لا توصل إلا إلى تصورات خاطئة ومشوشة عن مجمل تلك الكتلة. ولا عبرة بما قد يعود به الباحث من أوهام يحسبها علوماً وحقائق ثابتة.

فإذا تجلت لنا هذه الحقيقة فإن علينا أن نتساءل عن المصدر الذي يتضمن بيان خارطة اجمالية لبنيان هذا الوجود كله، بحيث يتبين الانسان من خلالها مرافق هذا البنيان ويدرك صلة ما بينها وسبل الاستفادة الصحيحة منها.

والواقع الذي لا شك فيه، أن بين أيدينا مصدراً واحداً يحوي هذه الخارطة النادرة ألا وهو القرآن، الذي هو خطاب خالق هذا الكون إلى عباده. فهو المصدر الوحيد الذي يبصر الانسان بالهيئة التركيبية لهذه المكونات في نظرة شمولية وعامة، وتنبهه إلى موقعه الذي يحتله من هذه الهيئة التركيبية كلها. وخلاصة ما يقرره في ذلك، أن بنيان هذا الوجود الكوني بأسره، إنما ينهض على دعامة من خلق الله له ابتداء ورعايته استمراراً، وأن محور هذا البنيان إنما هو الإنسان، وأن المهمة التي أنيطت به هي عمارة هذه الأرض، وإقامة مجتمع إنساني عليها، تشرق فيه العدالة وتشيع في أنحائه الرحمة. ولما كان الإنسان عاجزاً عن إبداع موازين العدل السليم وعن تفجير ينابيع الرحمة من داخل فكره ووجدانه، نظراً لما ركب فيه من صفات الأنانية، وحب التسلط، والتملك وغيرها مما سنذكره قريباً ـ فقد أنجده الله تعالى بمنهج لإقامة العدل، ودله على سبيل لاستشارة أسباب المحبة والتراحم، ثم ألزمهم بذلك إلزاماً وحملهم عليه حملاً، وسخر لهم من أجل إقامة هذا المنهج كثيراً من المكونات، ثم شدهم إلى تنفيذ هذه المهمة بعوامل الترغيب والترهيب، وكفلهم أن يكونوا رقباء على بعضهم في رعاية العدل وإقامة سلطان التآلف والرحمة. هكذا يتمثل الوجود الكوني كله، أمام بصيرة كل من أقبل إلى هداية القرآن وتأمل في بياناته وإرشاداته، فاتحاً له عين قلبه، معرضاً عن مشوشات عصبيته وأغراضه. وعندئذٍ لا بد أن يزول الاضطراب وتشيع في مكانه السكينة والطمأنينة. فإذا أقبل صاحب هذه البصيرة، يتعمق بعد ذلك فيما شاء أن يتعمق في

معرفته من الجوانب والأجزاء المختلفة من بنيان هذا الكون، فإنه لن يضيع عندئذٍ في المتاهات، ولن يخدع منها بألوان الطيف المنبعثة من تكسر تلك الأجزاء وانفصالها عن الكل الذي تتقوم به. بل سيكون له من الخارطة الكلية التي انطبعت في بصيرته ما يقيه من المتاهات ويرده عن الضلالات ولسوف يدفعه فهمه الكلي السابق لحجم البنيان الكوني على النحو الذي يوضحه القرآن، إلى الربط بين الجوانب والأجزاء التي قد تبدو أنها مستقلة بعضها على بعض ويتجه إلى شرايين التفاعل السارية فيما بينها. أما الآن فلنتابع طريقة القرآن في تبصيره الإنسان بخارطة الهيكل الكلي لبنيان هذا الكون. وقد سبق أن علمنا أن العناصر الكبرى التي يتألف منها هذا البنيان، هو: الانسان، والعمر الذي يتمتع به والمكونات التي تطوف من حوله، فلننظر كيف يعرف القرآن الإنسان على الهيئة التركيبية لمجموع البنيان الكوني من خلال تعريفه بهذه العناصر الثلاثة.

أولاً : من هو الإنسان في القرآن ؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال، يجب أن ألفت النظر إلى أن الإنسان هو محور المكونات كلها في كتاب الله عز وجل. فهو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة من تآلفها والتفاعل ما بينها. إذ هو العنصر الفعال، أما العنصران الآخران فمنفعلان ومتأثران. فمن أجل هذا نجد أن القرآن يحفل بالإنسان كما لا يحفل بغيره. فهو يبدأ حديثه إليه سواء من حيث النزول الزمني أو الترتيب الكتابي، بتعريفه على ذاته وتبصيره بهويته وتنبيهه إلى أصله وخصائصه. ألا ترى أن أول آية نزلت من القرآن كيف اتجهت إلى الإنسان في حديث عن ذاته وتعريف بنفسه: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق...الآيات ".

وإلى الآيات التي افتتح بها ترتيب هذا الكتاب الرباني، كيف بدأت هي الأخرى بالحديث عن الإنسان فقسمته إلى مؤمن وجاحد ومنافق، ثم خاطبت هؤلاء الأقسام جميعا فعرفتهم على هويتهم الإنسانية وقصت عليهم نبأ نشأتهم فوق هذه الأرض. إذن، فمن هو الإنسان في كتاب الله عز وجل؟ وما هي أدق مزاياه وسماته؟

لدى التأمل، نجد أن القرآن يبصر الإنسان بحقيقته ومزاياه، من خلال تنبيهه إلى حقيقتين اثنتين داخلتين في قوام تركيبه الإنساني، بينهما ـ في الظاهر ـ ما يشبه التناقض والتشاكس.

الحقيقة الأولى: أنه مخلوق تافه، أصله الأول من تراب، وسلالته من ماء مهين والشأن فيه أن طالت به الحياة، إن يعود إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئاً. تجد هذه الحقيقة ماثلة في نحو هذه الآيات.

" فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " " قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره "

" ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون"

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الإنسان هو ذاك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات الأخرى، وأنه ذاك الذي استأهل أن يأمر الله ملائكته بالسجود له متمثلاً في شخص أبيه آدم عليه السلام، وأنه الذي شرفه الله بالخلافة فوق هذه الأرض وأنه الحيوان الوحيد الذي جهزه بإشراقات العقل والتفكير. تجد هذه الحقيقة ماثلة في نحو قوله تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ".

" وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ".

" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة "

ولابد أن نتسائل الآن: فكيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للإنسان؟ وما وجه تركيز القرآن على كل منهما؟

أما وجه تآلفهما ضمن الهوية الإنسانية الواحدة، فوجه ذلك أن الإنسان مهما بلغت مرتبته من السمو ومهما اتصف به من المزايا النادرة، فليس شيء من ذلك نابعاً من ذاته، ولا هو اكتسبه بجهده وطاقته. وإنما جاءه كل ذلك فيضاً من الله عز وجل، لما شاء أن يختاه لعمارة هذه الأرض وأن يكلفه بتأليف أسرة إنسانية، تقف متحابة متضامنة تحت سلطان العبودية لله عز وجل. أما أصل تكوينه فمن تراب تافه، ثم من ماء مهين، ثم هو مخلوق عاجز في قبضة الله وحكمه.

قد أطبقت عليه أصار الذل والعبودية لمن بيده خلقه وتدبيره. إن لم يقر لسانه بذلك طوعاً أذعن بذلك كيانه وواقعه قسراً.

وأما الحكمة من تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين المتقابلتين والاستمرار في تذكيره الانسان بكل منهما، فلان رجل الحضارة الإنسانية (في حكم القرآن) هو ذلك الذي ربي في ظلال التنبه إلى هاتين الحقيقتين معاً. ذلك لأن من عاش لا يتبصر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها، وقع لا جرم في براثن ضعفٍ يجعله ضحية لطغيان الجبابرة والمتكبرين، ويقعده عن القيام بأي مساهمة في عمارة الأرض وإقامة المجتمع الإنساني السليم. ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرم الذي يملك من المزايا ما يخوله أن يبسط لنفسه حكماً وسلطانا على كل ما حوله ومن دونه، وقع بلا شك في سكرة تلك الصفات التي ليست في حقيقتها إلا فيوضات من الله عز وجل، ثم جعل من نفسه حاكماً دون الله عز وجل يبسط قهره على سائر المستضعفين.

وتلك هي آفة الحضارات الجانحة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ، أو نرى بقاياها في جنبات الأرض.. و تلك هي قصة الفساد أو الإفساد التي يكرر القرآن الحديث عنها والتحذير منها ! فما فسدت الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة، ولا بسوء ألم بها من هياج حيوانات أو وحوش وإنما استشرى فيها الفساد يوم تاه بنو الإنسان عن هوياتهم وواقع أحوالهم فتأله الأقوياء وذل الضعفاء. وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته، إما نحو التجبر والعلو، وإما نحو الخنوع والهوان. فتمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون وهاجت فيهم عوامل البغضاء، ثم انتشر بينهم وباء التهارج والقتل وتمت بذلك قصة الفساد في الأرض.

ومهما تطورت الدنيا واختلفت المدنيات والثقافات، فالقصة تظل واحدة تتكرر بتكرر العوامل والأسباب ذاتها. ولا سبيل للوقاية من مغبتها إلا بأن يصطبغ الناس بالبصيرة القرآنية عندما يعرف الإنسان على ذاته وينبهه إلى مكان كلا هاتين الحقيقتين من كيانه.

ثانياً : ما هي الحياة الإنسانية في القرآن؟

والحياة الانسانية هي ما نعبر عنه عادة بالعمر... ومن المعلوم أن أشد ما يتعلق به الإنسان من الدنيا إنما هو عمره. وما يكدح الإنسان في سبيل رزق أو بناء دار أو التجمل بكساء أو التلذذ بطعام، إلا سعياً إلى رعاية هذه الحياة، وتسبباً لاستبقائها إلى أطول زمن ممكن.

وإنها لحكمة باهرة أن يطبع الله الانسان على هذا التعلق بالحياة.

ذلك لأنها أقدس رأسمال يملكه الإنسان على الإطلاق !... إذ هي الوسيلة الزمنية التي لا بد منها لاستخدام الأرض وعمارتها، واستغلال ذخرها وخيراتها. فكانت الحكمة قاضية بأن تنطبع الغريزة الإنسانية في أصل كينونتها على حب البقاء.

غير أن الحياة ما دامت رأس مال أساسي للإنسان، إذن لا بد أن يتصرف الإنسان بها على هذا الأساس، بأن يسخرها أداة لإنجاز المهمة التي أنيطت به. وعندما يقبل الإنسان على تسخير حياته بهذا النحو، فلسوف يجد نفسه في مواقف تقتضيه أن يغامر برأس ماله هذا ويُضحي به، كما أنه يجد نفسه في حالات أخرى بحاجة إلى أن يزداد تمسكاً به وحرصاً عليه. وذلك حسبما يقتضيه السعي إلى انجاز المهمة الكبرى المنوطة به. وإذا لم نتصور تعرض الحياة لكلا هاتين الحالتين فلا معنى إذن لليقين بكونها رأس مال بين يدي الإنسان، بل تكون الحياة عندئذٍ شيئاً مقصوداً لذاته، وهذا مالا يقره المنطق ولا يقره المنهج القرآني بحال.

فمتى يجب على الإنسان أن يجازف بحياته ويغامر بها، ومتى يجب أن يكون ضنيناً بها ؟

لابد، للإجابة الدقيقة على هذا السؤال، من معرفة دقيقة لحقيقة العمر أو الحياة التي يتمتع بها الإنسان، من حيث مصدرها مآلها.. فمن لم يتح له أن ينال هذه المعرفة بميزان علمي سليم، لن يتمكن من اتخاذ المواقف المناسبة، عندما يتعارض بعض المهام الإنسانية مع بعض الشروط الأساسية لبقاء الحياة أو ضمانة بقائها على الأقل.

لذا ينتقل بنا البيان الإلهي من تعريف الإنسان على ذاته، إلى تعريفه على حقيقة العمر الذي يتمتع به، من حيث المبدأ والمنتهى ومن حيث الأحداث التي تنتظره من بعد هذه الحياة، ومن حيث علاقة العمر بتلك الأحداث المقبلة عليه.

فما هي الحياة الإنسانية في تعريف القرآن وتحليله؟

سنجد أن القرآن يتخذ في تعريف الحياة الموقف ذاته الذي رأيناه في تعريف الإنسان وتحليل حقيقته، وذلك من حيث لفت نظر الإنسان إلى طرفين متقابلين ضمن ذاته وكيانه.

فلنصغ إلى القرآن في بعض آياته، وهو يعرفنا بأحد الطرفين من حقيقة الحياة.

" اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ".

" وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ".

" قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً ".

إننا نرى بأن التقرير التي تتلاقى عليه هذه الآيات عن قيمة الحياة الإنسانية وحقيقتها، يتلخص في أنها ليست إلا معبراً إلى الحياة الآخرة، وأن الإنسان إنما يأخذ من هذه الحياة إلى تلك، حصيلة كسبه وأعماله. وهي في تقرير هذه الآيات حياة قصيرة تقوم بين موتين، ثم تليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها، وهي بكل ما تموج به اليوم من أحداث ويتعالى فيها من ضجيج، ليست سوى مقدمة في فصول قصة هذا الوجود الإنساني أو هي أول فصل قصير فيها.

ولو أن القرآن قصر حديثه عن الحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب وحده منها، إذن لكان حرياً بالإنسان أن لا يقيم لحياته وزناً وأن يهون أمرها في نظره، سواء من حيث الرعاية لها أو العدوان عليها والتفريط فيها..

وإذن لما حرك الإنسان لحمايتها ساكناً، ولأغنته سكنى الكهوف عن تعمير البيوت واتخاذ القصور فضلاً عن أن يهتم بإقامة حضارة أو إشادة مجتمع.

ولكن القرآن لم يقتصر في التعريف بالحياة الإنسانية على هذا الجانب وحده بل سرعان ما لفت النظر إلى جانب آخر من حقيقتها ودعانا إلى فهمها فهماً متكاملاً جامعاً بين تصور دقيق لكلا جانبيها.

وهو في تبصيره لهذا الجانب الآخر منها يكشف عن قداسة بالغة لها ويدفع الإنسان إلى سبيل رعايتها وحمايتها وينهضه إلى حراستها بوسائل شتى. فلنصغ إلى طائفة من الآيات القرآنية التي نشرح من حقيقتها هذا الجانب الثاني.

" من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة "

" من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً "

" ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة..."

" ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً "

فها نحن نرى كيف ينمي البيان الإلهي رغبة الإنسان في الحياة الطيبة ويلفت النظر إلى أقصر السبل إليها وهو العمل الصالح وينهاه عن أن يزج بحياته في المخاطر والمهالك بل يرخص له أن ينطق بكلمة الكفر إذا وجد أن حياته قد أصبحت مهددة، ألا تراه يقول " إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان "

والحقيقة أن كلا هذين الجانبين من حقيقة الحياة الإنسانية يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجانب الآخر. فكل منهما إذا انفصل عن الثاني يغدو باطلاً من الأمر وخارجاً عن معنى الحياة وحقيقتها.

إذ لو لم يدرك الإنسان ضآلة حياته التي يمر بها، لما أفاده شيئاً أن يعلم بمدى أهميتها وبأنها رأس مال عظيم متعه الله به. ولو لم يؤمن بما أضفى الله عليها من حرمة وقداسة لما فهم من معاني تفاهتها سوى وجوب الإعراض عنها والسعي إلى التخلص منها، لا سيما أن حسه منها أقل ضيق.

نعم إن هذه الحياة قصيرة وهي العاجلة حقاً كما سماها الله تعالى، ولكن ذلك لا يعني أن لا يحفل بها وأن يعرض عن الاستفادة منها.

إن الجسر الذي يصل ما بين الرجل وقريته ممتداً على نهر عريض تافه من حيث قصره وقلة شأنه بحد ذاته، ولكنه بالغ الخطورة في الوقت ذاته من حيث أنه السبيل الوحيد الذي يوصل الرجل إلى مقر بيته. وإن مما لاريب فيه أن استفادتنا الصحيحة من هذا الجسر وهن بمعرفة كلا صفتي التفاهة والأهمية فيه.

فذلك هو شأن الحياة الدنيا التي نمر بها دون أي فرق.. فمن حبس تصوره عند إحدى هاتين الصورتين منها، فقد أدرك منها شطر الحقيقة وكان في تعامله معها كمن يعالج نصف حجر الرحى إذ من المعلوم أن إدراك شطر الحقيقة لا يمكن أن يثمر شطر نتائجها فيما لو كانت متكاملة، بل هو يساوي من حيث النتائج فقدانها أو تمام الجهل بها كما أوضحنا ذلك من قبل.

إن الحياة في حكم القرآن وقراره دهليز إلى مقر وممر إلى الوطن الذي لا تحول عنه والدهليز يجب أن يفهم على أنه دهليز، أي فشطبه عن الاعتبار حمق وغباء والركون إليه ذهول واغترار.

ولقد كان من أبرز الآثار الحضارية لاتباع الرعيل الأول هذا المنهج القرآني واصطباغهم به، أن أحدهم كان يقبل إلى الحياة إقبال العارف بها والمستأنس بها، مهما كانت حاله وظروفه. فلم يكن يتبرم بها لضيق ألم به، كما لم يكن ينتشي بها أو يلهث وراءها للذة نالته منها. إذ هي بحلوها ومرها وسيلة إلى هدف وليست هدفاً تحف به الوسائل. فسيان بعد هذا أن تكون نفقاً مظلماً في باطن الأرض أو طريقاً معبداً يجتازه بين الرياحين.

ولقد استطاع رجل الحضارة القرآنية بحكم تفهمه للحياة على هذا الأساس القرآني أن يمسك بمقياس في غاية الدقة يعلم بموجبه متى ينبغي أن يكون ضنيناً بالحياة محافظاً عليها، ومتى يجب أن يتحول فيصبح سخياً بها بعيداً عن رعوناته النفسية وأهوائه الغريزية.

فانظر مثلاً وأصغ بسمعك إلى سجل الحضارة الإسلامية وتاريخها أتستطيع أن تلتقط أسماء عشرة من رجالها فروا من ضائقة الحياة وبؤسها إلى الانتحار؟.. إنك لن تستطيع أن تعثر ولا على خمسة أقدموا على ذلك.

ولكن انظر كم كانت تهون أرواحهم عليهم في الوقت ذاته عندما يجدون المبادئ مهددة وأن حراستها لا تتم إلا ببذل الدماء !...وما أكثر ما كان يرسل خالد بن الوليد إلى قادة الفرس والروم كتباً يقول لهم فيها : " لقد جئتكم بقومٍ يحبون الموت كما تحبون الحياة.. " وفي بعض الأحيان: " لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر ".

وهذا يعني أن مصدر هذه الاستهانة بالحياة هنا ومصدر التمسك بها هناك، لم يكن آتياً عن طبع خاص بهم أو عن عشوائية في تقديرها، إذ لو كان الأمر كذلك لكان جديراً بهم أن يتخلصوا من أثقال الحياة عند نزول أدنى ضائقة بهم، ولكان انتحار أحدهم تخلصاً من نكبات الحياة وآفاتها أولى أن يشبه في السهولة والرغبة بشرب الخمر.

بل كان مصدر هذه الاستهانة بها قراراً عقلياً وقناعة فكرية على أعقاب التبصرة التي بصرهم بها القرآن، بصدد التعريف بكلا جانبي الحياة ونقطة التوازن بينهما.

وإن بوسعنا أن نزيد رؤيتنا لهذه الآثار جلاء ووضوحاً إذا ما التفتنا فانتبهنا إلى الآثار السيئة التي تفشت في المجتمعات التي ضلت عن هذه التبصرة القرآنية، وانطلقت تتعامل مع الحياة على أنها اليوم الذي لا غد من ورائه، ولنتخذ من المجتمعات الأوروبية والأمريكية اليوم نموذجاً للنظر والاعتبار.

ان كل ما يتصوره ابن الحضارة الغربية اليوم من معنى الحياة أنها الفرصة الوحيدة لممارسة الوجود واقتطاف ثماره. فإذا خبت جذوة العمر عاد صاحبه إلى ظلمات العدم المطلق.

فتصور وقدر حال نفس إنسانية تشعر بأنها من الحياة أمام مائدة قمار لا خيار له في الإعراض عنها أو الإقدام عليها، وهي ليست مقامرة بمال يذهب ويعود، بل بمضمون هذا العمر كله. فأما أن يكتسى منه برد السعادة والنعيم ثم يأتيه الموت وفي نفسه منها أصداء للذائذ وآثار النشوة، وإما أن ينغمس منها في عذاب واصب ثم يتخطفه الموت وهو يعاني من غصة أنه رأى بوارق السعادة ولم يذقها، ولاحت له مظاهر النعيم دون أن تدنو إليه فيلمسها !.. تصور حالة هذه النفس كم تكون هائجة ومضطربة، وكم ينال منها القلق بكل ما له من عواقب الآلام والاسقام.

وما أظن أن فينا من يجهل الإحصائيات التي تتكرر كل عام عن أعداد المنتحرين في الولايات الأمريكية المتحدة تتزايد عاماً إثر عام وأنه وباء يستشري في صفوف الأثرياء والمترفين أكثر مما يظهر في بيوت الفقراء والعاطلين.

ولا أظن أيضاً أن فينا من يجهل أن أزمة الهيبيين والمتشردين، وجمعيات المجرمين المحترفين، وأرباب الشذوذات النفسية وهستريا الفلسفات الجنونية البعيدة عن ضوابط العقل والمنطق: إن هي إلا بعض من آثار الضياع عن معرفة الذات وعن التبصر بحقيقة العمر الذي يتمتع به الإنسان.

وإن من الثابت أن من شأن هذه المآسي التي هي آثار طبيعية لذلك الفهم الخاطئ عن حقيقة الحياة، أن تستعجل الزمن قدوم يوم تنظر فيه إلى تلك البلاد والديار، فلا ترى عليها من مظاهر حضارتها اليوم إلا الآثار والذكرى ولا تسمع من بقايا ضجيجها سوى الأصداء.

بقي أن تعرف على حقيقة المكونات الأخرى في القرآن.

والقرآن يتحدث عنها حديثاً مسهباً من عدة جوانب: فهو يعرفنا قبل كل شيء من الكون على صفحة ناصعة نقشت عليها براهين وجود الكون ودلائل وحدانيته. ثم يلفت نظرنا إلى أنه جملة مظاهر ومخلوقات سخرت لخدمة الإنسان ولتحقيق مصالحه وأسباب رفاهيته. ثم ينبهنا إلى أن هذه المكونات مع ذلك ليست إلا مظاهر أخاذة خادعة، ينبغي ألا ننخدع بها وألا نركن إليها.

غير أنه يعود مع ذلك فيدفعنا إلى استخدامها والاستفادة منها، ويحذرنا من تجنبها أو التحرج من الاستفادة منها.

تلك هي خلاصة الجوانب التي يتناولها القرآن من حديث الكون والتعريف به. فلنفصل بعضاً من هذا الإجمال:

إن أهم ما يلفت القرآن نظرنا إليه من حقيقة المكونات المحيطة بنا، هو أنها لسان ناطق وبيان قاطع بأن هذا الكون من صنع صانع وتدبير مدبر.

ولا يعنينا التوسع في الحديث عن هذا الجانب، إذ هو مما يجدر تفصيل القول فيه عند البحث في أمور العقائد وعرض البراهين على وجود الله.

ولكن لابد أن نلفت النظر هنا، إلى أن تثبيت اليقين بوجود الله في عقل الإنسان ويقينه، هو الخطوة الضرورية الأولى، على طريق السعي لتكوين الأسرة الإنسانية السليمة، أو الحضارة الإنسانية المثلى. فمن

دون هذه الخطوة الأساسية التي تعد بالنسبة إلى ما وراءها بمثابة الجذع من الشجرة، لا يستقيم شيء من المراحل أو الخطوات التالية على أي نحو مفيد، وسنجد أدلة ذلك فيما بعد.

ثم إن القرآن ينقلنا إلى بيان آخر عن المكونات التي حولنا، يلي البيان الأول في الأهمية والترتيب فهو ينبه الإنسان إلى أن جل ما يراه من حوله من أشياء الكون ومظاهره، مسخر من قبل الله عز وجل لخدمة الإنسان وتدبير أسباب حياته وعيشته ويوضح له أن الله تعالى قد أقام بينها وبين الإنسان نسباً من دراية الفكر والعقل، فليس شيء منه مستعصياً على النظر والفهم فهو يقول مثلاً " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ "

ويقول " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ "

ويقول " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ "

لنتأمل في كلمات ثلاث، تدور مع التعبير القرآني في هذه الآيات ونظائرها مما يتحدث عن هذا المعنى، وهي التسخير، التذليل، التمكين، فهي تعبر في اللغة العربية عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام وتنص الآيات بموجبها بدلالة لا تقبل الريب على أن الله تعالى أخضع جل هذه المكونات لكلا القدرتين العضلية والفكرية في الإنسان وأذلها لكثير من آماله ومطامحه.

وبهذا نعلم أن علاقة ما بين الإنسان هذه المكونات لم تكن يوماً ما علاقة تحد وصراع مهما أوغلت بخيالك في الماضي البعيد، واقتحمت بفكرك مع الإنسان إلى أغوار تاريخه السحيق. فما صارعها الإنسان في أي من العهود ولا صرعته وما حجب عنها يوماً بغير حجاب غفلته وجهله. على أنه لم يكن محكوماً عليه يوماً ما بحجاب هذه الغفلة والجهل، بل كان ولا يزال أمر هذا الحجاب ارخاء وتمزيقاً، عائداً إليه هو، بقطع النظر عن عقيدته ودينه.

أجل فلا الإنسان عاش يوماً ما مجرداً عن مزية العقل والفكر كما يتوهم الخرافيون من دعاة المذهب المادي ولا التي يسمونها " الطبيعة " وقفت تجابه الإنسان بأي تحد أو تمرد.

على أن البيان الإلهي ينبه الإنسان إلى أن الاذلال الذي أخضع الله به المكونات لمصلحة الإنسان إنما رتبه الله وفق سنة ثابتة ونظام لا يتبدل فلا يأتي التسخير والتذليل إلا ضمن سلطان هذه السنة الثابتة وبعد الانضباط بقيودها الراسخة. وذلك كي يكون الإنسان على بينة من السبل التي يسلكها عند سعيه وكفاحه، حتى لا يصطدم بتضاريس هذه الأنظمة الثابتة وحتى لا يكد نفسه وفكره في معالجتها دون جدوى وحتى يعلم الإنسان أن زمام هذا الكون أولاً وآخراً بيد مكونه جل جلاله.

ثم إن القرآن، يبدأ بعد ذلك فينبه الإنسان إلى القيمة الحقيقية للأكوان التي سخرت له وأمكنه الله من الاستفادة منها. فيحذره من الانخداع بها والركون إليها. وإنك لتنظر فتجده يؤكد بأن معظم هذا الذي يبرق في الأعين مرآه وتستهوي الأنفس لذته، ليس إلا سراباً باطلاً وخيالاً عابراً.

وإن القرآن ليفيض بالآيات التي تتفنن في ابراز هذه الحقيقة وتبالغ في تحذير الإنسان من الاغترار بشيء من مظاهر الدنيا التي من حوله، فلنصغ إلى بعض هذه الآيات:

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ " .

" لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ "

" وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى"

" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا "

ولو أن تأملنا ما توحي به هذه الآيات وحدها، واتخذنا منها وحدها قانون تعاملنا مع هذه الدنيا، إذن لكان علينا أن ننبذها ونطرحها وراءنا وننفض الأيدي منها، ولما كان لنا أن نأخذ منها إلا سد الرمق وبلغة الحياة.

ولكن البيان الإلهي عاد فندبنا بعد هذا إلى التعامل معها وأمرنا بمد بد الاستفادة منها، بل حذرنا من التأثم أو التحرج من الإقدام عليها، فقال عز وجل:

" قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

وقال: " هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً " وقال " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم "

وقال: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ "

والنص الجامع لأشتات هذه المعاني كلها هو قوله تعالى " هوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا "

وهكذا يتبين لنا أن علينا ألا نفهم الآيات التي تزهد في الدنيا بمعزل عن الآيات الأخرى التي تدعو إلى التعامل معها والاستفادة منها كما أن هذه الثانية ما ينبغي أن تفهم بمعزل عن تلك.

ولكن ما الحكمة من هذا المد والجزر في التحليل والبيان ؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعة التامة بأن الدنيا بكل ما فيها ظل زائل ووهم لا يجوز الانخداع به وأن يقبل إليها مع ذلك متتبعاً خيراتها، مستفيداً من ذخرها، يبني لنفسه من ظلها وسرابها قصوراً شامخة ؟ !..

والجواب، أن هذه الطريقة التربوية العجيبة في التبصير بحقيقة هذه الدنيا وكيفية التعامل معها، هي التي حلت عقدة كبرى كانت وما تزال تقف في طريق السعي إلى إنشاء مجتمعات أو حضارات إنسانية مثلى تحمل في داخلها مقومات بقائها، بدلاً من أن تنطوي على بذور فنائها حتى توهم كثير من الباحثين بسبب استفحال هذه العقدة واستعصاء حلها أن الحضارات كلها تخضع لطبيعة الحياة العضوية ومراحلها، بقطع النظر عن تدخل العوامل والأسباب فهي تنشأ في ضعف ثم تشتد وتقوى ثم تهدم فتموت، ولا حيلة فيما زعموا لتطويل عمرها إذا أدركها عهد الذبول والتلف مهما كانت العوامل التي قد يستنجد بها.

غير أن البيان القرآني أوضح بل أثبت أن الأمر ليس كذلك وإنما تكمن المسألة في أن لبقاء الحضارات شرطاً أساسياً وعلى جانب كبير من الأهمية والصعوبة معاً. إن أفلحت أمة ما في تطبيقه على الوجه الصحيح فلسوف يتحقق لها من تطبيق ذلك الشرط ما يدفع بحضارتها إلى الذروة أولاً ثم ما يحصنها ويحميها من كل آفة وضعف ثانياً، مهما تطاول عليها الدهر ومرت بها الأحقاب.

ويتمثل هذا الشرط في أن يمارس الناس دنياهم وأسباب عيشهم ورفاهيتهم بدافع الروح الوظيفية واستشعار المسؤولية، لا بدافع التعشق أو النهم النفسي !.. ولن يمارس الناس أسباب عيشهم بهذه الطريقة إلا إذا اصطبغوا بالبصيرة القرآنية في فهم الدنيا وتحليل حقيقتها، وإلا إذا أشربت نفوسهم موجبات المد والجزر اللذين رأيناهما في كتاب الله تعالى بصدد تعريفه الإنسان على المكونات التي من حوله.

فإذا ربي الإنسان على الاصطباغ بهذه الحقيقة فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ومهما لاح له بريقها، فسيبقى كل من فكره وعواطفه مشدداً إلى النعيم الأكبر الذي لا ريب عنده في قدومه وستظل نفسه مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر : " هذا يومكم الذي كنتم توعدون... كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية "

وعندما ينصاع هذا الإنسان بعد ذلك لأمر الله في الإقبال إلى الدنيا والتعامل معها فإنما يمارسها ممارسة الحاكم عليها المستخدم لها طبق منهج ونظام دقيقين، وضمن حدود مرسومة، ومن أجل تحقيق هدف إنساني مقدس على حين لا تستطيع الدنيا مهما ازينت وأخذت زخرفها أن تخلب لبه فتستبعده لتطوح به.

فها هنا يختبئ مفتاح الحضارة !.. وها هنا السر الذي يمدها بأسباب الثبات والاستقرار. ولن تقع عندئذٍ تحت طائلة القانون الوهمي الذي تخيله شبنجر وأشياعه.. وهو بعينه المفتاح الذي عثر عليه الرعيل الأول من هذه الأمة بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني فافتتحوا به مغاليق الدنيا في أقرب زمن وبأيسر جهد !.. لقد أقبلوا إلى الدنيا يعالجون بها عمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم، ولكن

بعد أن فرغت نفوسهم من غوائل التعلق بها والاندلاق عليها، فأقبلوا إليها إقبال من امتلأ شبعاً إلى طعام يبيعه أو يتاجر به.

ولو أنهم مارسوا الدنيا بنفوس متعلقة بها متعشقة لها إذن لكانوا مثل ذلك الذي يضع بين يديه أطباقاً من الحلوى يبيعها ليستغني بأثمانها، ونفسه تهفو إليها ولعابه يسيل عليها، فهو يتذوق منها بين الحين والآخر، ويتخذ منها افطاره إذا أصبح وعشاءه إذا أمسى. إن مما لا ريب فيه أنه لن يعود من مسعاه التجاري إلا بالخيبة والخسران، وسيضيع كلاً من الجهد والمال معاً. فإلى مثل هذه الخيبة كان سينتهي سعيهم لولا التربية القرآنية التي علمتهم كيف يفهمون الدنيا ويمارسونها وهم مترفعون فوقها، متحصنون ضد مغرياتها وغوائلها.

ولما كانت أكثر الأمم والشعوب غافلة عن هذه الحقيقة، تائهة عن التبصرة القرآنية في التعريف بالدنيا على حقيقتها، فقد أقبلت تتعامل معها بنفوس متعشقة لها متولهة بها، فكان من جراء ذلك أن سعت تلك الأمم إلى بناء مدنياتها وحضاراتها، بدافع النهم النفسي أكثر من التدبر الفكري. فنشأ عن ذلك السباق بين أصحاب الدوافع المتشابهة، ونشأ عن السباق الصراع ثم كان لا بد أن تنشأ عن الصراع الخصومات والحروب.

وقد تنجح هذه الأمم أو بعضها في إنشاء حضارة لها من خلال هذا السباق اللاهث، ولكن لابد أن تحمل تلك الحضارات منذ يوم نشأتها بذور دمارها وعوامل فنائها. وذلك طبقاً للمراحل التالية التي لا بد أن تمر بها كل حضارة من هذا القبيل تتفتح أمام تلك الأمم أبواب الثروة والغنى، فتطوف برؤوسها من ذلك سكرة النعيم، وتتقاذفها حياة الدعة والترف. فينسيها ذلك واجب النهوض بأعبائها الجسام. وما هو إلا أن يتبين الرقباء من أعدائها مظهر هذا الضعف فيها فيتوكؤون عليه ويتخذون منه ثغرة للمتسلل منها و" التوضع " فيها، وأساليب ذلك واضحة غير خفية.. والمصير الذي لابد منه على أعقاب ذلك هو الذبول فالموت والدمار.

وغني عن البيان أن مراحل استفحال هذا المرض تتوالى في مواقيت زمنية متناسبة مع أعمار الدول والحضارات فلا جرم أن العين المجردة وأجهزة الأمراض الجسدية لا تستطيع أن تكتشف حركة هذه الجرثومة الحضارية ومراحل نموها وكيفية سير المرض نحو التفاقم فالقضاء على أصحابه.

وأياً كان الأمر فتلك هي الجرثومة الكبرى التي تفتك في جسم الحضارات الجانحة وبها تمرض ثم تموت !.. هكذا زالت حضارة الرومان وهكذا قضي على حضارة الفرس وهكذا انتهت دولة ملوك بني الأحمر في الأندلس وهكذا تقوض عرش القياصرة في أقصى الشرق، وعلى الدرب ذاته تسير اليوم حضارات جانحة نحو الزوال والانمحاق.

والمهم أن نعلم أن هذه الحضارات لم تفاجئها عوامل الضعف والهلاك من خارج بنيانها بل نشأت معها بذور هلاكها من ذاتها ومنذ يوم ميلادها وبالسبب الذي انتهينا من تحليله وشرحه.

وبعد أيها السادة هكذا يبصر القرآن الانسان بخارطة الهيكل الكلي لبنيان هذه المكونات وهكذا يدربه على الانتقال من معرفة كليات الكون إلى التأمل في جزئياته.

وأحسب أن قد تبين لنا من خلال ما أوضحناه أن لا جدوى من أثقال المعارف الجزئية التي قد يحشو بها الإنسان دماغه إن لم تتراصف ضمن دائرة من المعرفة الكلية الحقيقية للإنسان والحياة والكون.

وأحسب أن قد أتيح لنا أن ندرك بدقة الوصف القرآني لتلك المعارف الجزئية المبتورة عن جذورها عندما قال عنها وعن المتباهين بها " يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا " فهي علوم سطحية حقاً وإن بدت لنا عميقة هامة ضمن حدودها الجزئية.

وأحسب أن قد آن لنا أن ندرك حقيقة من سماهم الله علماء في كتابه المبين عندما قال عنهم " إنما يخشى الله من عباده العلماء " فإن من قد يوصفون اليوم بالعلماء من هؤلاء الذين انصرفوا يحملقون في زوايا صغيرة وجزئية عن الكون كله ليسوا علماء في ميزان القرآن وحكمه فليسوا هم الذين تتوقع منهم الخشية من الله كما أنهم ليسوا هم الذين ينتظر أن تغنيهم علومهم بطمأنينة المعرفة وسكينة الشعور بالوصول إلى المطلوب.

وأخيراً أحسب أن قد أتيح لنا الآن أن نعرف سر تخلفنا والسبب الحقيقي في تحول ماضينا الحضاري العريق إلى ذكريات تستعاد وأحاديث جميلة تتلى.

ويقيناً لو أن ثروات الدنيا كلها أصبحت ملكاً لنا ولو أن منجزات الحضارة الغربية كلها احتشدت في بلادنا ومرافقنا، لن يزيدنا ذلك كله إلا دفعاً لنا نحو قاع التخلف، ما دمنا لا نتحرك نحو الاصطباغ الحقيقي بهذه التبصرة القرآنية التي أوجزنا الحديث عنها، والتي تنطوي حقاً على مفتاح حضارتنا الاسلامية المثلى.

ثم إن بلاءنا الأعظم بعد هذا كله أن نجد فينا من يجهل أو يتجاهل هذه الحقيقة الساطعة ثم يتمشدق على أسماعنا كل يوم بالحديث عن الاقتراحات الغبية الجوفاء للتخلص من التخلف الذي نعانيه، وهي اقتراحات بليت من تكرارها وإعادة التركيز عليها.. ففتح أبواب الاجتهاد، والانفتاح على الحضارة الغربية وتطوير الإسلام بما يتفق وسلطان تلك الحضارة، هو الترياق الشافي من تخلفنا !..

والحقيقة أنها ليست اقتراحات باحث متحرق على خدمة أمته، راغب في أن تستعيد أصالتها وحضارتها، ولكنها شنشنى مفتون بل مخمور بعقار المدينة الغربية الجانحة السائرة نحو الدمار والانمحاق طال الزمن أو قصر.

فلا جرم أن يقول تحت تأثير من نشوته الآسرة:

وداوني بالتي كانت هي الداء !..

جمع الله أمر هذه الأمة على خير ورزقنا نعمة الصدق في التعامل مع قرآننا الذي صدقناه وإسلامنا الذي اعتنقناه.